الفصل الثامن

الرّحيل

[. . وإن أُمِت ، فما أنا على صُحبتكم بحريص . .] ! !

ثَقُلَت الدنيا على البطل . . كما ثقُل هو عليها ، فناءت تحت ضغط ورعه الصارم . وعدله الحازم . .

لقد عقد عزمه على أن يحمل مسئولية الحكم بضمير« عمر بن الخطاب » فى زمن مختلف جداً ، بل مُناقضٍ جداً لزمن « عمر بن الخطاب » . . . ! !

كان « ابن الخطاب » يحيا فى امتداد عصر الوحى والنبوة ، ومعه أعوان كثيرون على الحق والعدل . .

أما « ابن عبدالعزيز » ، فيحيا فى ميراث مُلْك عضوض وسنواتِ ترفٍ وانحلال وضياع ، وليس معه على الحق أعوان . إلا قلة نادرة تاهت فى الزحام . . ! !

* * *

ولقد نجح فيما عقد عليه عزمه نجاحاً لايُعرف له نظير . . بيد أن هذا النجاح الخارق تمَّ على حساب كل ذرَّة ؛ بل كل جُزَىْ من ذرة فى عافيته وحياته . .

وحين نستعرض « برنامج » يوم من أيام حياته ، لا يأخذنا العجب لقصر مدة خلافته وعمره . بل يأخذنا العجب لأنه بكل . هذا الجهد المميت ، استطاع جسمه أن يتحمل ويقاوم ويستمر فى الحياة – على هذه الصورة – عامين وخمسة أشهر . . ! !

إن الجسد الذى كان – قبل الخلافة – يحيا ، وتترعرع خلاياه على أهنأ مافى الدنيا من غذاء ونعيم ، حُرِم فجأة لحظة استخلاف صاحبه ، لامن ذلك النعيم فحسب ، بل ومن المقومات الأساسية واللازمة لحفظ الحياة . مجرد الحياة . .

ثم هو مع هذا ، لايبذل جهداً متكافئاً مع فاقة صحته ، وضمور جسده . بل يبذل جهد رجل يرى نفسه مسئولا مسئولية مباشرة وكاملة عن كل فرد من مواطنى دولته العريضة المترامية .

ثم هو لا يعيش المشكلات الطاحنة للأمة والدولة وحسب ، بل يعيش فى استغراق رهيب مشكلتَه مع نفسه ، ومع الموت ، ومع المصير غداً بين يدى العلى الكبير . . ! !

فهو – كما قال واصفوه – يرتجف دوماً ويبكى ، وكأنَّ النار لم تُخلَق إلا له . . ! !

يرحمك الله أبا حفص . . ! !

من أى شىء تخاف . . ؟

ولمن جنات الله ، وخُلدُه . . ؟

ولمن رضوانه ، ومجده . . ؟ إذا لم تذهب أنت منه بالنصيب الأوفى . . ؟

لكنها – يابن عبد العزيز – شِيمَةُ الذين يَقْدُرون الله حَقَّ قَدْره . .

أجل . . . فما كان للقديس ذنب يخافه ، ولاتفريط يُحاذِره . إنما هو جلال الله ؛ تجلَّى منه فى روحه وَمْضة ، فجعلته دَكًّا . وخرَّ منها صَعِقاً . . ! !

* * *

لقد عاش فترة خلافته – تسعة وعشرين شهراً . . وكأنها تسعة وعشرون قرناً . ! !

وفى كل دقيقة ، كانت روحه وأعصابه وعافيته تُعطى جُهد عام . .

إن التغيير الهائل الذى أراده للدولة وللأمة ؛ كان يتطلب لوسارت ريحه رُخاء جيلاً أو جيلين ، فأبىَ إلا إتمامه فى الأيام الباقية له على الأرض ، وبين الناس . . .

وأى تغيير كان ؟ . .

إنه تغيير لايتطلب خليفة واحداً . بل عشرات من الخلفاء ، يحمل كل منهم روح رسول . . !

إنه يريد أن ينقل إلى دنيا الترف والفساد والردّة ، عصر الوحى والنبوة . . ثم هو لايريد أن ينقله إلى نظام الدولة والمجتمع وحسب . . بل إلى أفئدة الناس ، وضمائرهم ، وسلوكهم . . ! !

* * *

من هذه الصورة السريعة ، نلمح الأعباء الخارقة المهلكة التى حملتها روحه وجسده فى تَفانٍ رهبانى ، واستبسال عظيم . .

إن بعضاً منها يكفى لتصديع الجبال . .

فكيف بها مجتمعة . . ؟

ثم كيف بها إذا اخترقت طريقها الأرزاء . . ؟

أجل ، فبينما الفدائى العظيم ماضٍ فى طريقه ، إذا به يفقد أحب الناس إليه ، وأحْناهم عليه ، وأوفاهم له ، وأبرهم به . .

* أخوه « سهل » . .
* وابنه « عبدالملك » . .
* ومولاه « مُزاحم » . .

رحلوا عنه تِباعاً . . وتركوا مكانهم حوله شاغراً ، إلا من الذكرى التى تثير الألم والشجَن . . ! !

إنه لم يفقد فيهم – رضى الله عنهم أجمعين – الأخ ، والابن ، والرفيق . . بل فقد فيهم أعوانه على الحق ، والنماذج الصحيحة لفضائل عصر الوحى الذى شَغَفَه حباً وإجلالاً . .

ولقد راح يُحس أن ذهابهم ، إرهاصٌ بقرب ذهابه . . ،وأن رحيلهم ، أذانٌ بقرب رحيله . .

أفلا يهدأ إذن ويستريح ؟ ؟

لا ، بل راح يضاعف الجهد ، لينجز العمل قبل أن يرفع مَراسِيَهُ ويُبْحِر . . ! !

راح يتفوق على ماعهد البشر من طاقة ومقدرة ، وقد تملكته الرغبة فى استشهاد نبيل . . ! !

لم يعد يُؤرّقه ولا يعنيه ، سوى أن يجىء حينه ، ويده القوية الأمينة ممسكة براية الله عزيزة ظافرة ، يقول لربه حين يلقاه :

« رَبِّ ، هذه رايتك لَم أُسلِمْها . »

« ووديعتُك ، لم أَخُنها » ! !. . . »

* * *

وبينما هو فى عَنائه : وعظمة جهاده وبلائه ، كانت هناك مؤامرة تُحاك ، وجريمة تُدبَّر . .

فبينما مرت الشهور التسعة والعشرون على الجموع كأنها حلم سعيد . . كانت كل دقيقة منها كابوساً خانقاً مرهقاً للأمراء والسادة ، وذوى الامتيازات الظالمة التى داستها أقدام موكب الحق الذى قاده أبو الشعب ، وأمير المؤمنين . . ! !

هنالك ائتمروا به . .

وكما تُحدث بعض كتب التاريخ ، دَسُّوا له السم فى الطعام . . ! !

على أن قوة روحه لم تَخذله أبداً . . فراح يسابق المنية فى إنجاز مايستطيع إنجازه ، ويقول :

« إن لله شرائعَ وسنناً ، إنْ أعِش أعلمكموها وأحملكم عليها . .

« وإن أمت ، فما أنا على صحبتكم بحريص . . ! ! »

أجل . . إنه لا يربطه بالحياة الدنيا إلا الرسالة التى حملها فى عنفوان وتُقى . . وأعطاها حياته فى إخلاص وتَبتُّل . . ! !

لكن الآخرة ، سرعان ماتُرسل إرهاصها وبشائرها فى صورة شوق عارم يأخذ إلى الله قلبه وروحه .

لقد تأججت أشواقه إلى لقاء الله ، وتركزت فى قرب هذا اللقاء كل أمنياته وضَراعاته . وصار دعاؤه المفضل :

« اللهم اقبضنى إليك غير مُضَيِّع ولا مُفَرِّط » .

بل إنه ليرسل فى طلب « عبدالله بن أبى زكريا » وكان شيخاً عابداً صالحاً ، معروفاً بأنه مستجاب الدعاء . .

وحين يأتيه يسأله فى إلحاح أن يدعو الله له كى يُعجِّل بلقائه . . ! !

إلى هذا المدى ، راحت أشواقه تدفع زورق حياته إلى المرفأ السعيد . .

وأمر أن تُشترى له قطعة أرض بدير سمعان ، تكون لجسده مَثْوًى وقبراً . .

وإذ كان يأمر بشرائها ، قال له بعض أصفيائه .

« لو ذهبت إلى المدينة ، فإن أدركك الموت بها دفنت مع رسول الله ، وصاحبيه . . »

فإذا هو ينتفض كالطلقة المقذوفة ، ويقول :

« والله لأنْ يُعذبنى الله بكل عذاب دون النار ؛ فإنى لاصبرَلى عليها ، لأحبّ إلى من أن أرى نفسى لهذا المقام أهلا » . . . ! !

* * *

واشتد به المرض . . .

وتحولت الملايين من أبناء أمته إلى أطفال ، يوشك اليُتْم أن يَحيق بهم حين يفقدون أباهم .

الجياع ، الذين شبعوا . .

والعُراة ، الذين اكتسَوْا . .

والخائفون ، الذين أَمِنُوا . .

والمستضعَفون ، الذين سادوا . .

واليتامى ، الذين وجدوا فيه أباهم . .

والأيامى ، اللائى وجدن فيه عائلهن وأخاهن . .

والضائعون ، الذين وجدوا فيه مَلاذهم . .

والتائهون ، الذين وجدوا فيه دليلَهم . .

كل هؤلاء ، وأولئك . . كل الناس فى شعبه وأمته سحقتهم أنباء مرضه الداهم . . .

بل خارجَ أمته ، فى الدنيا التى حوله ، والتى كانت سيرته تفوح فيها كالعبير ، تولأُها الجزع والذهول . .

حتى امبراطور الروم ، العدو اللَّدود لدولة العرب والإسلام . يرسل كبير أساقفته ، وكان بالطب خبيراً ، ويرجوه أن يصنع المستحيل لإنقاذ حياة الجار الطيِّب والخليفة العادل ، والقديس الجليل . .

لكن القديس الجليل رفض كل علاج وكل طب وكل دواء وراح مع أشواقه ، ينتظران لحظة النداء . . ! !

* * *

هاهو ذا ؛ راقد فى داره المتواضعة ، فوق حصيره المعهود . .ويدخل عليه ابن عمه « مسلمة بن عبد الملك » فيقول له :

« يا أمير المؤمنين . ألا تُوصِى لأولادك ، فإنهم كثيرون وقد أفقرتهم ، ولم تترك لهم شيئاً » . . ؟ !

ويجيبه عمر « وهل أملك شيئاً أُوصِى لهم به ؟ أم تأمرنى أن أعطيهم من مال المسلمين ؟ والله لا أعطيهم حق أحد . .

« وهم بين حالين : إما أن يكونوا صالحين ، فالله يتولاهم . . وإما غير صالحين ، فلا أدَعُ لهم مايستعينون به على معصية الله . . ؟ ! »

وأمَره أن يدعو أولاده ، فجاءوا مسرعين . . اثنى عشر ولداً وبنتاً ،

شُعْثا غُبراً ، قد زايَلتْ جسومهم الشاحبة نضرةُ النعيم ! !

وجلسوا يحيطون به ، وراح يعانقهم بنظراته الحانية الآسية . . ويتحسس بيمينه ثيابهم البالية . . ويغالبُ دموعه ، فتغلبه فيواريها وراء كلماته التى راح يودع بها أبناءه وأحباءه . .

« يابنىَّ . .

« إن أباكم خُيِّر بين أمرين . .

أن تستغنوا ، ويدخل النار . .

أو تفتقروا ، ويدخل الجنة . .

« فاختار الجنة . .

« وآثر أن يترككم لله الذى نزَّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » . !

ثم بَرِق بَصره والتمع مُحيّاه ، وصوَّب حَدقتيه تجاه الباب فى اهتمام خَفِىَ ، كأنما أبصر ضيوفاً أعِزَّاء . .

ثم ابتسم لأبنائه ، ولأمهم العظيمة وزوجته الوفية ، وأذِن لهم بالانصراف . .

وبينما هم منصرفون عنه ، كان يحرك كفيه ويشير بهما إشارة من يُحيِّى ضُيوفاً قادمين . . ! !

أجل ، لقد كانت بَعثةٌ شَرفٍ من الملائكة المقربين ، جاءت تصحب القديس إلى حفل تتويجه المعدِّ له هناك . . فى جنات الخلد وفردوس الله . . ! !

وسمعه الذين وقفوا خارج حجرته يردد الآية الكريمة :

« تلك الدار الآخرة ، نَجعلُها للذين لايريدون
عُلُوًّا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين »

وجاء مستشاره العظيم وصديقه الحميم « رجاء بن حَيْوة » يسعى . .

وألقى بنفسه إلى جواره ، وهمس فى سمعه :

= كيف تجدك ، يا أمير المؤمنين . . ؟ ؟

لكن أمير المؤمنين يسترسل فى تلاوة الآية الجليلة الكريمة :

« . . لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » . .

* * *

وفجأة . . مال رأسه الذى طالما أثقلته هموم أمته إلى وراء . .

مَالَ ، ليستقر فوق وسادة ، حَشْوُها لِيف . . ! !

وأغمضَتْ عيناه اللتان لم تُغمِضا قط عن حقٍّ لله . . ولا عن حقٍّ للناس . . ! !

وعاد المسافر إلى وطنه . . وآبَ إلى داره . . .

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصدِّيقين ، والشُّهداء ، والصالحين . .

وحَسُنَ أولئك رفيقاً ! !

كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ
٢ – مواطنون .. لا رعايا
٣ – الديمقراطية ، أبداً
٤ – الدين للشعب
٥ – هذا .. أو الطوفان
٦ – لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ – الله ، والحرية : ثلاثة أجزاء
٨ – معاً على الطريق – محمد والمسيح
٩ – إنه الإنسان
١٠ – أفكار فى القمة
١١ – نحن البشر
١٢ – إنسانيات محمد
١٣ – الوصايا العشر
١٤ – بين يدى عمر
١٥ – فى البدء كان الكلمة
١٦ – كما تحدث القرآن
١٧ – وجاء أبو بكر
١٨ – مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ – كما تحدث الرسول
٢٠ – أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ – رجال حول الرسول
٢٢ – فى رحاب على
٢٣ – وداعاً ، يا عثمان
٢٤ – أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ – معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦ – عشرة أيام فى حياة الرسول

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٦٣١٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6511-X

١/٢٠٠٣/٤٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)